2- المنهج الثّقافي ونظريّة الكشف عند الدّكتور علي مهدي زيتون

بقلم الدّكتورة: هبة العوطة
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها – الجامعة اللبنانية
أستاذة في الجامعة الإسلامية

كعادته ينغمس «الدّكتور علي» في مؤلَّفه حتّى يصل إلى الاشباع، ومن ثمّ يخرج بسِفر عظيم، يكون مرجعا في بابه، أبدع في كلّ ما كتب وأتقن حتّى صارت أعماله حاضرة فينا، وبالعودة إلى آخر إصداراته الموسوم بعنوان « المنهج الثّقافي ونظريّة الكشف» الّذي طُبع عام 2021 في دار الحوار للنّشر والتّوزيع، ويحتوي 298 صفحة تدور فكرة هذا الكتاب حول المنهج الثّقافي ونظريّة الكشف بداية من بدئها فكرة غامضة في ذهنه، وصولا إلى الوعي الأبهى بذلك المنهج، مسهبا في كيفيّة تفتّحه وتطوّره تطوّرا سريعا مترافقا مع مرحلة نضجه الثّقافي. والكتاب قائم على قسمين : دراسة نظريّة وأخرى إجرائيّة. والدّراسة النّظريّة هي استعادة لجميع المداخل النّظريّة الّتي شهدتها الكتب السّابقة ومحاولة تطويرها، وتوجيهها بما يجعل منها وحدة متكاملة.

أمّا الدّراسة الإجرائيّة فتمثّل مسيرة موازية لمسيرة الدّراسة النّظريّة. على هذا الأساس فإنّنا أمام كتاب جديد يشكّل توجّها في النقد الأدبي، مرتكزا إلى نظريّة الكشف ومتجاوزا من سبقه من توجّهات نقديّة عرفتها نظريّتا الانعكاس والانكسار. وقد قسّم كتابه إلى ستّة فصول بعد مقدّمة استهلّها بولادة كتابه الّتي لا تُماثل أيّة ولادة، وعن بدء فكرة المنهج الثّقافي واشتغاله به في أبحاثه دون وعي منه أنّه كان يشتغل في سياقه، وعن تفتّح الوعي به وتطوّره تطوّرا سريعا متزامنا مع مرحلة نضجه الثّقافي. هذا ما قدّمه في مستهلّ كتابه، ثمّ قدّم الفصول السّتّة حيث أسّس لمشروعه، وطبّق له في الوقت عينه، وهي عادته الجمع بين التّنظير والتّطبيق.

اختار للفصل الأوّل عنوانا «التّجربة الثّقافيّة العربيّة الحديثة»، حيث استهلّه بأهم الجوانب الّتي تعامل معها العقل العربي من الثّقافة الغربيّة، ثمّ تساءل إن كان باستطاعتنا القول إنّ الثّقافة العربيّة الّتي شكّلت طريقة الحياة في المجتمعات العربيّة الحديثة هي وليدة المثاقفة مع الغرب. وانطلاقا من السؤال خَلُصَ إلى إجابة مفادها أنّ الثّقافة الغربيّة ثقافة علميّة في جانب أساسي منها يمكن محاورتها بما يفضي إلى امتلاك معرفة ضروريّة بإنجازاتها وعلى جميع الصّعد، تمكّن من مجاراة الحياة الحديثة. وهي وإن

ضربت صحفا عن أيّ قيم أخلاقيّة في التّعامل مع الآخر، إلّا أنّ في الثّقافة العربيّة ما يسدّ هذه الثّغرة، ويصوّب المسار العلمي للمجتمع .

وينطلق في الفصل الثّاني الّذي جعل له عنوانا « نحو المنهج الثّقافي « الّذي عمد فيه إلى تقديم المنهج الثّقافي انطلاقا من المحاور الآتية : حقيقة المنهج النّقدي، حركة الأبوياز والمنهج النقدي العلمي، مشترك الحقول المعرفيّة، شرعيّة المنهج الثّقافي، التّجربة الثّقافيّة العربيّة الحديثة، جدل الثّقافة والسّياسة. ويشير في نهاية هذا الفصل إلى أنّ الأدبيّة هي النّظام السّيمولوجي عينه وهو نظام شديد الاتصال بالثّقافة أو هو تجلٍّ من تجلّياتها أو عمق من أعماقها، ولا يوجد أيّ طرف من دون وجود الطّرف الثّاني. والامساك بأيّة قيمة من القيم الفنيّة الّتي يكتنزها الخطاب الأدبي لا يكون إمساكا عميقا وحقيقيّا ما لم يكن هذا الإمساك من خلال المنهج الثّقافي.

كما وسم الفصل الثّالث « بأساسيّات المنهج الثّقافي « الّذي طرح من خلاله نظريّته الّتي سيُقارب بها النّصوص في هذا الكتاب، ومنها انتقل إلى الثّقافة : ثقافة الجماعة وثقافة الفرد، وأشار في نهاية هذا الفصل إلى الفرادة الحقيقيّة الّتي ترتكز إلى ثقافة فرديّة قابضة على ثقافة الجماعة.

وفي السّياق نفسه انتقل إلى الفصل الرّابع الّذي قام على مبحثيْن هما : « النّقد الثّقافي والتّفكيكيّة « والّذي استهلّه النّاقد بتساؤل عن ماهية النّقد الأدبيّ وبِمَ يتميّز المنهج الثّقافي عنه ؟ فنقل إلينا آراء عبدالله الغذامي في المبحث الأوّل، الآراء الّتي استخلصها من دراسته التّطبيقيّة، وتواكُبِها مع العقليّة العربيّة منذ القديم، ودعوة الأخير إلى موت النّقد الأدبي وقتل كلّ الجماليّات الّتي تنتجها النّصوص الأدبيّة، وقام ناقدنا بدحضها. ومنها انتقل إلى المبحث الثّاني مسهبا في تعريف التّفكيكيّة اصطلاحا، ومفهوما، مستشهدا بدور كلّ من دريدا وكانط ونتشه. ومنه عرّج إلى الفصل الخامس الّذي اكتفى فيه بعنصريْن ألا وهما الشّاعر ومفهوم الشّعريّة وقدّم مجموعة من النّماذج الشّعريّة عند كلّ من الخفاجي والجرجاني والقرطاجنّي، كما وتطرّق إلى منظّري الشّعريّة المحدثين أمثال : جان كوهين، وكمال أبو ديب، وأدونيس، ثمّ استجمع ما ساقه من أفكار وآراء ليستكمل فهما أخيرا للشّعريّة.

ثمّ اختتم دراسته النّظريّة في الفصل السّادس والأخير من الدّراسة النّظريّة الموسومة بعنوان «السّرد والمنهج الثّقافي» بمقاربة الخطاب الرّوائيّ متسائلا عن أهدافه. ومنه انتقل إلى حدود فاعليّة المجتمع في تشكيل الرّواية، معرّجا على البنيويّة والسّيميائيّة

والأسلوبيّة الّتي قامت عليها آليّة المنهج الثّقافي الّذي يسير تباعا على خطى المناهج الّتي سبقته، ولكنّه يتميّز عنها بمقولة الكشف.

والجدير بالذّكر أنّ «الدّكتور علي» على مدار مؤلّفاته النّقديّة دائما ينطلق من التّنظير إلى التّطبيق، هذا منذ كتابه الأوّل «الإعجاز القرآني وأثره في تطوير النّقد الأدبي « وصولا إلى كتابه «المنهج الثّقافي ونظريّة الكشف»، محاولا من ذلك مواكبة السّاحة النّقديّة العالميّة. وبالعودة إلى «الدّراسة الإجرائيّة (السّرد)»، إنّ النّصوص الشّعريّة والنّثريّة المختارة موضوعا للدّراسة عند كلّ من : فاتن المرّ، ونبيل سليمان، وعلي حجازي، وطراد حمادة، ومها خير بك ناصر، ولطيفة الحاج قديح، وزهراء عبد لله، ونزار دندش، وسامية السّلوم، ومحمود نون، ومحمد علي شمس الدين، وسلمان زين الدّين، ويحيى الامام، وزاهر أبو حلا، وسعيد أبو زور، لم تكن انتقاء عشوائيّا فنتاجهم واضح لخصوصيّة رؤيتهم إلى العالم، وهذه الخصوصيّة الّتي قامت عليها فرادة كلّ منهم من جهة ولِنصل إلى لبّ الدّراسة النّقديّة من جهة أخرى عنيت بذلك المنهج الثّقافي ونظريّة الكشف. فيتمخّض عنها قوام المنهج الثّقافي الثّلاثي : الرّؤيّة، العالم المرجعي، اللغة. فالعالم الرّوائي عمق من أعماق العالم المرجعي، استطاعت رؤية الأديب بما تمكّنها منه ثقافته أن تمسك به. وهذا العمق بناء على نظريّة الأبعاد المتعدّدة لأيّ جانب من جوانب العالم المرجعي، لا يمكن لرؤية أديب آخر أن تدركه بمعزل عن رؤية هذا الأديب. يعني أنّنا أمام خصوصيّة هذه الرّؤية، البصمة الفريدة، وهذه الخصوصيّة والفرادة هي الادبيّة عينها، هي رأسمال الكاتب الّذي يُثمّر باكتشافات متعدّدة متنامية من أبعاد العالم المرجعي. والاديب الحقيقي يهجس دائما بفكرة الخلود، بقدرة نصّه على فاعليّة مستمرّة تؤثّر في كلّ جيل من أجيال القرّاء، وتُسهم في تشكيل ثقافتهم. وماذا تكون الرّواية إن لم تكن سؤالا جيّدا ومسعى مثابرا للإجابة، أو محاولة تقديم إجابة؟ وماذا تكون إن لم تكن صورة الواقع في تحوّلاته وطموحه للتّغيير وإيجاد قواعد جديدة؟

مفاد القول وختامه إشكاليّة تستحضر نفسها: هل استطاعت الرّواية العربيّة أن تطرح أسئلتها المحرجة للثقافة العربيّة القائمة الّتي تعيش تبعيّة واضحة للثّقافة الغربيّة في ظلّ عقل عربيّ عاجز؟ إنّ هذه الأسئلة النّوعيّة وحدها كفيلة باكتشاف موقعنا الثّقافي في عالم اليوم من جهة، وبإعادة تشكيل ثقافتنا من جهة ثانية، فنكون على قدر المرحلة الّتي نتفيّأ تحت ظلالها.